

وجوه من الشعر

## الحب الصاعد في نفس ابي شبكه

بقلم ميشال حايك

« لي اى الله في حنانك مرقا  
 ة ولي صوتك الشجي سلاز ...  
 سرف تسمى روى وتنهار احلا  
 مر وتبلى مف وحي دانز ... »  
 ( اى الابد )

نحن في سنة ١٩٩٠ . كنت حينذاك تلميذاً في معهد الرسل في جوثيه . وقادتنا التزه الى الذوق ؛ وعلى احدى دروب تلك البلدة سر بنا شاب نبيى اليه احد رفاقي مشيراً باصبعه : « هذا هو الشاعر الياس ابو شبكة . » وما حفظت في ذاكرتي منه سوى لون اسحم ومشيعة متوترة . ما اذكره الا كما يذكر القريب بلداً بعيداً مر فيه ، او كما يذكر الاعمى خيطاً من النور مشولاً . وانطبع في تلك التقاطيع القديرة وما تزال مع الزمان تكفب سراً مجدداً وستظل نجوم فوق نظري حتى يجبو فيه الضياء تحت الانطباقه الاخيره .

ما رأيت في تلك القرية المرعة غير شكل ابي شبكه الخارجى . وارانى الان بعد عشر سنوات اجلس في غرفة موحشة كنفس ذلك الشاعر واقلب صفحات آثاره فارى ، لا رسمه الذي اضحل فاصبح تراباً في قبر ، بل ارى روحه القتيبة البيضاء . لا ينال منها الفناء منلاً وتتكرس دونها الايام والليالي ، لانها ابعد من ان تطمس جمالها غيرة السنين . وما ذاك الا لان ابا شبكه باقر ، وجود بيتنا يتكلم الينا فتصمى اعماقنا المخاصة الى كلام الحب المتقطر من شفقيه الملتهميتين : الحب الهاموي ، والحب الصاعد .

الحب مفتاح حياته وموته ومدخله الى الخلود . والحب كلمة معقودة النبرات في فم الانسان منذ كان ، يحاول النطق بها فيكون نصيه الفشل ،

اذ تعجزه الاصوات والحروف وتبقى تلك الكلمة جرساً خفياً يرن في الاعماق فلا يجمعه الظنون ولا يجتده المقاطع المادية الفانية . وما اكثر الذين اعترموا الحب فما وجدوا سوى ذات مبعثرة ضائعة تبحث عن ذاتها : انهم الخطاة . وما اقل الذين غرقوه في الحب العظيم ، في الله ، فوجدوه حقيقةً اسمى واطهر واكثر شمولاً : انهم القديسون .

وابو شبكه هو من الاثنين : هو مجرم وبار ، هو خاطى . وقديس كانت خطيته طريقاً اوصله الى القداسة في الحب ؛ اوصله الى نكران ذاته ، وهل القداسة سوى نكران ذات متواصل ؟ اذا كان هوى حتى اسفل الوادي فلانه احب الصعود الى القمة المحاذية . وكم من الذين لم يتعرفوا الى حرية القسم الا بعد ان يكونوا قمرغوا في السهل وجرحوا ايديهم وارجلهم بين صخور الوهاد الشائكة ا

من هؤلاء . كان ابو شبكه . فبر طاهر حتى في خطيته لان الخاطى . كما حددته تلك القديسة الساذجة برناديت ، هو الذي يجب الشر . وابو شبكه ما احب الشر ابداً . انه ما كتب ليفسد اخلاقاً او يبيلب طهارة . بل كان مخلصاً لواقعه عبر عنه تعبيراً صادقاً واندفع الشعر على فمه دماً جارياً من قلبه ، اكان ذلك القلب . لوثاً بالاثم او مشتاقاً الى السباح ، او مستقراً في الطهارة . ان ادب ابي شبكه اعتراف ، فيه من اعترافات الفرد ده موزه (de Musset) ومن اعترافات القديس اغوستينوس النبي . الكثير : فجزور وطلب مغفرة ، مראה وتقوى ، استلام الى الاثم وانفتاح على الخير .

ما اذنب نظير موزه ولا طهر نظير اغوستينوس ولكنه بقي على الدرب بين الاثنين . لم يقنع بالوادي الموجه الموعر نظير الاول ، ولم يبلغ القمة نظير الثاني . لقد ظل متأرجحاً بين الوادي والقمة ، بين الاثم والقداسة ، بين الجحيم والنسيم فظال مكوته في مطهر العذاب . وهذا ما يجمله قريباً من القلوب . ففي كل انسان هذا المثني من المتناقضات . ولذلك نستقبله ونتعرف فيه بعض الاحيان الى ذاتنا اذ انه يعبر عن هذا التراع النفساني المستمر في داخلنا بين ارادتين متعارضتين : ارادة الخير و ارادة الشر . واذا

به حين يروي قصته الشخصية ، يقفز ، ككل شاعر انساني حق ، وراء حدود الذات الضيقة ، ليجمع بهذا المجرم والتديس ، بهذا الحيوان والملاك اللذين يهجان في قرارة نفس كل انسان .

شعر ابي شبكة كروحه قلق متألم : تارة يتزو فيكاد يحلم حقيقة مجسدة فتشيع العبطة في كلماته وتهدر الساحة والغفران بين مقاطعه ، حواحب الجرس الخفي الناعم ، وطوراً يصطدم بالواقع المرير الغلاب فاذا الشعر قطع من روح متحطبة ممزقة ، فتبكي المطور وتنتحب القوافي .

شعر ابي شبكة قصة قلبه المجتدة في حروف وكلمات : تارة تنغم الليلي عليه بصفر لقاء واجتماع مرقوب بين غفوة الزهر وارتعاشات الدوالي المنخورة ، فاذا الشعر فناء في الجيب ونسيان لكل ما يذكر بغير حمرة خدين ولهبة انفس ، ولكل عين سوداء تطلب سوياً :

لاحس في الدنيا لأنسان  
فالناس كالأشباح قد داحوا  
ولم يزل الأخبيلان  
حيين ، والباقون اشباح ... (١)

وطوراً الم فراقه ووحشة مريعة وعزلة جوفاء . فاذا الشعر قطرات دموع وسبح في يم ذكرى تفر الحقيقه منها كالحلم الشرود :

هي هذي شاهد الامس ، لكن اين زهوي ، واين قلبي الخفي ؟ (٢)

ما اعرف شاعراً من بين شعرائنا اللبنانيين اخلص لواقعه في شعره كما اخلص ابو شبكه . واذا كان اصدق الشعر أكذبه فما أبعد ابا شبكه عن الشعر الحقيقي الصادق . انه لم يكذب في شعره على حياته بل عاش فيها وعاشها فيه :

هم يشقون بشعرهم اما انا فبأدمعي  
بدمي باعراقي بروحي بالشباب المرع (٣)

(١) نداء القلب .

(٢) الاخوان .

(٣) نداء القلب .

لم يكذب لانه احب حقيقةً والحب دائماً صادق حتى في الوحشة لانه صورة الله فينا . وان نحن لوثناها في المستنقعات والبؤر الفواجر فانها تظل ، وإن مشوهة ، صورة الله الذي ما أبدعنا الاً عن حب وما ارادنا الا للعب القويم .

وابو شبكه ادرك ذلك حين هتف في اخر « افاعيه » ، كتاب الحب الآثم ، صارخاً :

ان في الحب صورة الله لكن اين في الملق صورة الملق (١)

تراه كان يتكلم عن نفسه بعد تلك العاصفة الهوجاء التي اجتاحتها ؟ من يدري . ولكننا نعلم انه كان يشعر بانتقاص في روحه عن دعوتها الحقيقية ، وبالمسافة التي قطعها بعيداً عن الذي وحده يشبع النفس الجائعة . كان يحس بالفرق اللامنظور بين ما يشتهي حقيقةً وبين ما يتلهى به . وكان هذا الاحساس يتفجر مرارةً وشكوى . مأساة ابي شبكه داخلية وعراكمه اعمن من ان يكون حياً لامرأة يحاول ان يخلص لها بينا الاخرى تستغويه . ان قصته هي قصة ملاك وحيوان متاركين في نفس انسان ، الاول يشد به الى فوق والثاني الى اسفل الجحيم . واذا كان لبي الدعوتين ، فان الملاك كان له النصر في النهاية .

#### مراحله

في حياة ابي شبكه مراحل ثلاث رواها لنا شعره الصادق . الاوليان وعرتا المساك ، ضيقنا الشاب ، تعي فيها من الالم الوانا وكاد اليأس الاسود يستولي لولا بقية من النور احتفظ بها بين نيران قلبه المشتعل . اما المرحلة الثالثة فهي درب صاعدة نحو القمة ، فيها الكثير من غصص الذكريات الماضية الموجهة ، وفيها على الاخص الكثير من التبول والارتياح والطأنينة بعد احوال الماضي وصخب ليايه .

مراحل ثلاث قطعها وما من رفيق له غير جراحات قلبه التي كانت تلتهم

شيئا فشيئا على اوكسيجين التلة . انه عاش في وحشة حتى قرب التي اعطاها قلبه الكبير . عاش في وحشة لان كل عظيم في الارض مستوحش منفرد يحمل عظته عبئا ثقيلا على كتفيه . واذا كان اشرق ، قرب ساعة الرحيل ، قبس رجاء بين عينيه ، فلانه ، حتى في جحيمه ، احتفظ بشي . من القداسة ما نالت منها يد الفارسية .

وسرافقه على الطريق الصاعد ، وما هي مرافقة شخص وهمي ، بل قلب يترنم دما احيانا ودموعا اخرى وشيئا من البلم المغزي . واذا قدر لنا ان نكون من المخلصين نتعرف الى قلبنا مع ما فيه من عثرات وضمير واستسلام انيم وما فيه ايضا من نهوض بعد السقطة وشجاعة بين احوال القفر المرعبة .

### في الجحيم

ابو شبكه في « افاعي الفردوس » يحترق في نار . انما يجتاز مرحلة من اعنف مراحل حياته واقاساها . ذلك القلب القوي النابض بالحياة ، الذي يقابل الحياة بأنفة وكبرياء ، « يبحر في صميم انفته وكبريائه . وما ششون الذي صوره لنا الا رسم له . هو العزيز النفس ، الأييبها ، تستعبده دليقة اخرى . ويحاول ان يهدم « دعائم الكذب الجاني » ويتفقت من القيود التي تكبل حريته :

هيكل الاثم لم اربح لك ذلي شبح الرق لم اسك نيري (١)

ولكننا ليست سوى محاولة مخففة فالشاعر تهج في صدره « السموات الحمر » الطاغية ويصطنح احساسه بها . في قلبه نار الجحيم او بالاعرى قلبه هو الجحيم . فلا فرق بين الاثنين بعد ، كما قال احد ابطال دستوريمسكي :

« أليقة الفحشاء نارك في دمي فترضمي ما شئت ان تترضني »

انا لست اخشى من جهنم جذوة - سا دام جسي با - دموم جهنمي (٢)

وما ترى الجحيم ؟ أليس العجز عن العمل بجزية ؟ أليس الاسر في سجن

(١) افاعي الفردوس .

(٢) افاعي الفردوس .

تود لو تحطه النفس وتقوض دعائمه ؟ أليس هو تلك الغرفة الضيقة المثنتة حيث تنكش النفس على ذاتها في فراغ موعر . ذلك ما صورّه لنا ، في هذا العصر الفيلسوف الوقح حين قال على لسان المجت احد ابطاله : « انا قشرة فارغة : لقد مَحَّتْ جوفي احدى الحشرات ولم اشعر " . . . » واذا فالجحيم هو موطن كل شئشون أكلت دليّة - النار داخله ، فاصبح سجين الفراغ والوعورة والوحشة الابدية . الجحيم سجن وعبودية لذات اتية :

« اصبح الليك في يدك اسيراً فاطرحيه سخريّة للحبير

ان قاضي المشبدين لبدئ وقضاة عزّز قضاة المورد . . . » (١)

وما ترى الجحيم غير تلك الرسوم المتشججة الالوان وذلك الحرف المستبد :

« أخاف في الليل من طيف بيل على موجات عينيك حيناً ثم ينترب

طيف من الشهوة الحمراء تنزله نخر الليالي وفي اعماقه العطب . . . » (١)

وما ترى الجحيم سوى تلك الصور المحومة وذلك الصهريّة المحرق

الآن كآل المتعجر :

« في مدرك المحوم كهريت اذا لبت به الشهوات فجر أضلع . . .

وأثرت حنجرة الفجور فاطلفت حمأ على نهم الجحيم مرقمه

اغنية حمراء اندهما الخنى بزقاً على اوتادك المتقطه . . .

بؤر سترة الفساد بخدعة نكراء بالخر الشهي رقه . . . » (١)

وبعد ان عرفنا اخلاص شعر ابي شبكه لحياته ، ندرك ولو قليلاً شدة

الألم الذي كان يعانيه . ومهما تكن شاعريته قد تسامت لما استطاعت وصفاً

لتلك المشاهد المرعبة والصور الجهنمية التي جسدها امام عيوننا بحروف نارية

لولا لم يكن احسن بظنوطها ترتسم في قلبه . وكل من يقرأ قصيدته « القاذورة »

يشعر بتلك القسيبة التي ضاع فيها ويحسّ بذلك الدوار المحوم الذي أسكر

اعصابه وهدر في اعراقه المخورة . واذا بالشاعر يطوف قارئه في دنيا غير

حقيقية في الواقع الملموس ولكنها حقيقية في قلب كل اثم مجرم : انها جهنم ،

تلك التي شاهد دانتة على ماها هذه الكلمات المروعة: «ايها الداخلون هنا، القروا عنكم كل امل». والشعر اللبناني، كالشاعر الايطالي، قرأ الكلمات ذاتها:

قرأت عليه احرفاً خطها الظن وبروءك منها أثنان : سخن مؤبد  
فطوّفت في غمر من الليل والمنا بمريد والارجاس ترغي وتريد  
وللحبا التالي نثيّر ورفوة كأن الورد مستفح يتهدد...  
فشة جردان ترى النور آفة فتوتر او جدار الظلام وتلبد. (١)  
وتتتابع الصور الخالكة السوداء، صور «الجرذان» «والحفافيش»  
«والجرادات العطاش القوارث» «والانسر» «والصراخير» وتلك «الارواح  
المسوخة» وذلك «الضير المدرد». فيحتل اليأس من شاعرنا المكان  
المعتم فيودع عذارى الحب البيضاء، ويستلم الى النيران التي تحرق ولا تُقفي:  
«وداعاً عذارى الحب في جيم الهوى جمالكِ عظورٌ وعدتكِ موصدٌ.  
ألا اغلقتي الفردوس في وجه شاعرٍ يضمّ ضاير الجحيم وينشد. (١)»  
هكذا كان شاعرنا يصطلي بنار ذاته، بنار شهواته. ومن عجيب ما  
في تلك الشهرة انها تشتد لجأً وجوعاً كلما شبت. وانها لتصبح ككلاً كلما  
اكلت من فؤاد الانسان.

لو وقف ابو شبكه هنا، لو استقر كل حياته في هذا المكان الموبوء،  
لكان اعنف وأوجع شاعر عرفه الادب العربي. ولكنه، لحسن حظه، لم  
يستقر طويلاً في هذا الجحيم. لم تكن تلك السنوات القاسية على فؤاده سوى  
معب شائكٍ خطير دخل فيه ليخرج منه الى الحياة.

#### في المطهر

قلب ابي شبكه بناءً متهدم إثر عاصفة هوجا. اجتاحتها ولم يبق فيه من  
جمال العبرة المرصوفة، عمارة النقاوة، سوى خشبات محترقة:  
لا تجسي قلبي فلم يبقَ فيه من بناء الماضي سوى اخشاب (١)

ولكنه سوف يعارك امواج البحر الهائجة ويطنو عائماً على احدى هذه  
الاخشاب حتى يبلغ المرفأ الامين ، حيث الهدز والسلام . اجل أنه مهَّد  
للشر سبيلاً الى قلبه ، فدخلته بنت لوط وانعى الفردوس ، ودليلة الفاتنة ،  
فاصبح قاذورة تمج بالمطالب المتكالبه وتمحرق النار الازلية التي اشعلها الحب  
الماوي في الانسان . ولكن بقي في قلبه مطرح مقدس ، هو حرمُ نفسه ،  
لم يسمح للفساد ان يدب اليه بظفره ومخلب ولم يرد ان تمسه كف ملوثة بالعار .  
ومع انه اعطى شفتيه قرباناً على مذبح الخطايا ، فقد احتفظ بزاوية من قلبه  
سيجها وحصنها وخفراً ساهراً على بابها ليله الطويل :

« يا ابنة الالم هذه شفتايا فارشفي منها وحبق الخطايا  
واعصري ما استطعت قلبي فقلبي لم يزل فيه من غرامي بقايا  
وتوفي احدى زواياه لا تضي فلي حرمة باحدى الزوايا  
ان في قلبي النبي خيالاً من عناف ما فاجرته البقايا  
ان تكن حفتي المدماة ملكي فخيال العفاف ملك سرايا » . (١)

هذه الاشعار الخمسة التي ترد بعد قصيدة « الشهوة الحرام » تحت عنوان  
« الخيال النقي » هي اصدق صورة للشاعر في تلك الحقبة من عمره الثعبان .  
خيال من ذاك الذي يحوم بين عينيه الملتهبتين ؟ أترى هي « غلواء » النقية  
الطاهرة التي ما تزال تجي . قرب ججيه فتفرش بساطاً من الامل في موطن  
الياس الدامي ؟ لا شك في انه خيالها . فقد كان الشاعر يزلف كتاباً باسمها  
ولكن قلبه ، كما يقول الاستاذ بطرس البستاني ، كان يجتاز ، ازمة عفيفة  
حالت دون ظهور الكتاب في وقته . اما طيفها فما زال يمر كالومضة في جفنيه  
فيتذكر النقاوة والطهر ويحن اليهما .

وبدأت الامة تتطهر من جراثيم اليأس ، على ان هنالك حرقه ملازمة  
كانت ترافقه ، لان ماضيه اثم يقر به ويعترف بانه جوع نفسه حين اطعمها  
من الهوى الغاني ، من الشهوة التي تمسخ الشهوة الحقيقية ، هذه التي تطلب الله  
لستقر فيه :

رسم عروش الي كادراً جالراً حوتت نفسي رشت اهوى العاي  
نبت في الناس امراء محرمة وقت للناس قولاً عنه نهائي (١)

هي مرحلة العراك الدامي في نفس الشاعر : عراك الارادتين في الانسان الواحد : لقد تعرف اليه القديس بولس حين هتف : « من يخلصني من جسد الموت هذا ... اصنع الشر الذي لا اريد والحبر الذي اريد اياه لا اصنع<sup>(٢)</sup> »  
لقد تعرف اليه القديس اغوستينوس حين صور لنا عادانه السيئة تحاول ان ترجعه عن قصده واهتدائه : « وكانت صواحب الامس تشد بذيل جسدي اللصمي ، وتمس بي قائلة : أظردنا ؟ ماذا ؟ لن نكون معك منذ الان وصاعداً ولن يحق لك ان تأتي هذا الملل او ذاك الي الابد ؟<sup>(٣)</sup> » وهذا راسين ( Racine ) الشاعر الفرنسي الناعم يعبر لنا عن هذا القلق الداخلي وهذا التناقض الموجه . أما قال في « اناشيده الروحية » :

Mon Dieu, quelle guerre cruelle !

Je sens deux hommes en moi ...

Hélas en guerre avec moi-même

Où pourrais-je trouver la paix ?

Je veux et m'accomplis jamais,

Je veux, mais (ô misère extrême !)

Je ne fais pas le bien que j'aime

Et je fais le mal que je hais !

O grâce, ô rayon salutaire

Viens me mettre avec moi d'accord ! ... (٤)

وايو شبكه ككل نفس كبيرة شعر بذلك الانتقام الداخلي الذي جرح نفسه . يسمع صوت الله يناديه لينهض من الوحلة ، فيريد تلبية الصوت ولكن الخطيئة أسدلت ستراً على عينه فكاد لا يبصر :  
تري ميشتك العليا تناديني بعودة النار في تلك البراكين ؟

(١) اغاعي الفردوس .

(٢) روميه ٧ : ١٤

(٣) اعترافات ٨ : ١١ - ٢

(٤) *Cantiques Spirituels*

رناه ! هل ينهي حلبي بيارقة من اللهب ويخبو الطين في الطين ؟  
 أعرضتُ عنك غداة القلب ضلّني كأن شهوة قاي عنك نغيبني  
 وحين أوقظتُ من - كرهوى تحجلاً بحث عنك ، وكاد النار يخفيني . . . (١)

وهكذا كانت تلك النفس الحاطئة الطاهرة تعارك ذاتها لكي تتفقت من القيود التي كانت تربطها ، فاذا بها تتصاعد رويداً رويداً من هوة اليأس الى الامل وتسمو فوق دعوات اللحم والدم . انها نفس جائعة الى غير الحبز الذي لا يستطيع وحده ان يشبع الانسان .

في هذه الفترة من حياته الموحوجة ، تطّلع ابو شبكه ، لكي ينسى اوجاعه ، الى صباه ، الى قرينه ، الى الفلاحين والحصادين والرعاة ، الى برهات الغيب المحتم فوق « الزوق » ، فبدت له اضاوا . حبيبة واذا الحياة كلها لحن تدمت الطمانينة والصحو في النفس المتألّمة . وتغنى الشاعر لو يرجع الى ماضيه فينسى هموم الحاضر واتعابه ويدعو نفسه الى الصلاة لترتاح قليلاً :

اجدي لله والي قرة ذكرى العذاب . . .  
 واستيدي ذكريات لأوقات عذاب  
 لم يكن ماضيك كالحاضر مرناً كئيب . . . (٢)

ويودّ لو يرجع لبنان كله الى الماضي الجميل ، الى السعادة التي غبرت ، حيث كان « الضير الهني وراحة الوجدان » حيث :

ذاك الشيد العتيق في الحايصة  
 وذلك الأبريق يمش في الزاوية  
 والترجرس المستفيق في الآنية  
 والريح لمرق على رؤوس الحيق  
 كأنه ما سرق كأنه ما جنى  
 يا دهر أرجع لنا ما كان في لبنان . . . (٣)

ويصرخ متحلقاً الدهر بان يرجع « الرفش والممول والموقد والصاج

(١) افاعي الفردوس .

(٢) الاطلاق .

والخبر والفلاح القادي والموسم المقبل وراحة البال « ، يطلب من الدهر ان يرجع « لنا وجهنا » :

واسترجع الكهرا وكاذبات النقي -  
بادهر ارجع لنا ما كان في لبنان ... ١١

ويطول بنا الحديث ان اردنا ان نستخرج كل ما في « الاغان » من جمال وروعة . هنا ظهرت كل روح ابي شبكه النقية الناعمة الشفاقة . كما أن العاصفة المفاجئة اذا هبت بفتة على روضة تترك بعدها هدوءاً اعمق من الهدوء . وصعوراً أطيب من الصحو القادي ، هكذا نفس ابي شبكه بعد ان عصفت فيها تلك الزوبعة الاخرى العاطفية .

ويجيء بعد « الاغان » ، « نداء القلب » الذي هو كتاب البحث عن الحب الحقيقي . حقاً ان قلبه ينادي ، ينادي الرجح الطاهر الذي فقدته في مطلع شبابه ، ينادي ، من بجيرة الالام ، حلم الجمال العفّ والرسم الذي شوّهت حية الفردوس صفاءه ونضارته . قصائد ابي شبكه في هذه البرهات تتفقت شيئاً فشيئاً من الواقع ، لتجتمع بالحلم ، تترك الماضي لتوجه الى الممكن المتيد ومعنى الهوى الحقيقي . قصائده في هذا الهدى ، هذا بعض عناوينها : « الأناء » ، « الناسكة » ، « انت لي » ، « اجك » ، « الناسك » ، « العفاف المعوي » ، « استنراق » . اين هذه الكلمات الصوفية من من تلك المناوين ، ايام شقائه في الحجيم : « انقاذورة » ، « الافعى » « في هيكل الشهوات » ، « سدوم » ، « الشهوة الحمراء » ، « الطرح » .

لشوقه قليلاً امام « الناسكة » ، انها خلاصة حالة الشاعر . لقد نسي او اصبح على وشك ان ينسى مطهره ، فيخيل اليه انه على رابية ، يفتح نوافذ قلبه للجب ، ويوصد بابيه دون الوري ويعيش في معنى الجمال فترة تنجل فيها كل الثورات القديمة الجالحة . وهناك في تلك « الغفلة الرواعية » تمر يقظته روح ملائكية مرفرفة من عل فتنتشي احلامه من سحر وخمرة سرية . واذا

به ، وقد بدأت الالام تضجحل ، يسمع الصوت الذي خنقت نبراته ضجبات  
امه التقديم :

واسع صوتاً كهس عميق فاصني انسم اعماقيه (١)

### على طريق التسم

انه الصوت الذي ما برح يتاديه ، من بين فحيح الافاعي ، الى المكوث  
في ارض الميعاد « الى الابد » . الصوت الداوي في قرارة كل وجدان ، وم  
هم الذين يسمعون ؟ لقد سمعه ابو شبكه من بين ضجيج قلبه المحسوم ونيران  
جسمه الطاغية . وما كانت حياته الا محاولة لتلبية ذلك الصوت الداخلي وهذا  
المس العميق . واذا توقفتا عند الكلمات فقط لا ندرك من نفس ابي شبكه  
الا القشرة الظاهرة ، ويفوتنا التلق النفساني . لقد كان قلقاً اجل . وهو من  
تلك النفوس الكبيرة التي تعجز الارض عن تحقيق رغائبها ، فلا التراب ينبت  
زهواً على . تعطشها للعطر ، ولا القفر يبرع بالحوض فيروي ظمأها . ولهذا  
تنفقت من الواقع ، الى ما وراء الواقع ، من اليوم الى الزمان ، من الزمان  
الى الابدية ، من الفرد الذاتي الى الانسان الشامل . من النثر اليومي الى عالم  
الشعر الحقيقي ، لان الشعر وحده يستطيع ان يعبر عن الحقيقة ، وما الحياة  
اليومية الا كذب ومساومة على الحقيقة .

انه الهرب . الهرب امام الماضي ، الهرب من قسوة الزمان ، الهرب امام  
المدى المحدود ، امام الحياة ، الهرب صوب الابد ، صوب الله .

وسوف يهرب الى الله فيحتمي به من ضراوة الحب المفتوس ، لا بل  
يبدله بحب آخر يفرش على الناس الذين اساءوا اليه ساحة وغفراًناً . وهكذا  
سنرافقه على طريقه الصاعد الذي سوف يشرف به على جنة النعيم . قد  
انتهى طور التردد والاضطراب بين ما يشد به الى اسفل من ذكريات  
مسرورة ، وبين ما يدعوه الى تسلق القمة حيث ينقى الهواء ويظهر الحب .  
لقد كان مخلصاً لدعوة الفرق فصعد رغم صعوبة الصعود ووعورة الطلعة .

(١) نداء القلب .

ان آخر شعر من « ندا القلب » يُظلل بنا على تلك الأرحام الفسيحة  
حيث الشاعر يُحيط انظاره :

« لم يكن ماضي في الحب سوى مطهر أفضى الى هذا النعم »

اين هو ذلك النعم الذي يشير اليه ؟ انه امامه منبسط الفسحات مخضوضر  
الدروب . فليتلاش فحيح الافاعي التي نفثت سمومها في جسمه ، ولتخذ  
النيران المحرقة ، نيران حبه القديم . اما الان فقد اشرفت على عينه اضاء  
منهرة من عل تنقي ارجاس لحمه ودمه وتثفي الجروح المعدوية بيلم جديد  
وحب ازيلى جديد .

يقول القديس يوحنا الصليبي : « انس كل شيء قديم ، حتى النعمة القديمة  
التي أعطيتها ، وامش الى الامام ، فان الله في الامام . » وابو شبكه سوف  
ينسى القديم ولياليه المحسومة ؛ وعندما تذكره ملبسة « الى الابد » بالماضي ،  
يجيبا :

... لو جئت لألقت في ترابي حجاجم

كان قلبي ياليل يدفن ماضيه فلم تنبلي بتلك المآثم

كان روحي إذ أقبلت بتترى الحقد فيه وكان حي ناقم

فالأفاعي لم تبق الا سوماً في جناتي وفي ضبري سائم ...

حبها كان مطراً لمذاي قت من ان نهر قنم

وفي هذا النعم يود الشاعر ان يستقر ولا تبدله بعد ضجات الكائنات .  
وما عنوان كتابه « الى الابد » غير الدليل الصريح على قصده المكوث في  
هذا النعم . ولكن هناك ثلاثة اعوام قبل الوصول الى جنة الافراح . لقد  
سَمى العام الاول « الحلم الجميل » ترد من خلاله ذكريات الامس ولكنها لا  
تؤلم نفس الشاعر التي صُهرت في مطهر العذاب . اما العام الثاني فهو ، ما  
نستطيع ان نسميه « اللقاء » حيث يوفل الحاضر العذب بالاماني الطيبة التي  
لا اثر للآثم فيها . والعام الثالث هو انفتاح على المستقبل العيد حيث يود  
الشاعر كبطرس على الجبل يوم التجلي ، ان يصنع خيمة ويثبت هناك لانه  
شعر بغبطة البقاء على تلك القعة . ويبتدى هذا العام بتشيد يفيض رقة  
وعذوبة :

نغم عدن وهم مكان مررب' شئت فيه عين' وقلوب'  
سكب الحب' رحمة الله فينا فالسنى مانع' بنا والعايوب'  
كل اعراقنا السيدة للاميان مجرى وللرجاء دروب'  
تنتهى بنا الى الفضة الكبرى فنغنى بسحرها ونذوب' ١١

واذا بهما يتحديان صروف الزمان وشرايع الارض . ويمزمان على  
الاخلاص والوفاء. المتبادل حتى ولو تجددت تلك الصروف والشرايع للمحوّل  
دون ذلك . ويستجدان الجمال الذي توطد اليها. دعائمه في الارض :  
ان يتأ على الجمال بيناه لتأى الساء ان يتبادا ١١  
وهكذا سيثبان نغم انف العوازل والحاد ويستد الواحد من الاخر  
قوة الاستمرار في ذلك النغم :

باحيي كما حيت راحيا ان بي من نبيك استرادا . . .  
كلا غرق الظلام عيوني اطلع الحب في دمي انوادا ١١

اعتادت الكنيئة الكاثوليكية ان تصلي على قبور الموتى وتقول :  
« الراحة الى الابد اعظمهم يارب » . وها هو يستريح في حبه الجديد .  
واكن الموت قد بدأ يكبله وينشب في قلب الشاعر اظفاره القاسية وما كانت  
راحتة سوى وحي للراحة الابدية المزمعة الذي نأمل ان يستفيق منها على حب  
آخر غير هذا الثاني الترابي الذي اضاعه .

ابو شبكه في « الى الابد » بلغ قمة شعره . فكان حياته كلها ما  
كانت سوى اعداد لهذه المرحلة . « الى الابد » هو الكلمة الكبرى ، كلمة  
الحب الواعي ، الذي فاه بها قبل ان تحمد فيه شعلة الاحساس . وقلبه كان  
تلك البجيرة الصافية التي ، بعد ان عكرت مياهها اسراب من الجنيات البواهر ،  
عادت الى صفائها الاول . « الى الابد » هو صحو بعد عصف شتات  
شديدة ، وشروق بعد الحبط في ليل بهيم حال . . .

مرکز « غلوا »

اماً « غلوا » فكانت تلك النجمة البيضاء التي لم تقورها القيم المتلبدة ،  
بل ظلت تشع من بيد تهدي الشاعر الى مسكن السلام . لقد بقيت ، في

تبه المربوب . . . ذلك « الحيال النقي » خيال العفاف والوراعة . انبا « بياتريس »  
 نتي قادت « دانت » من الجحيم الى المطهر فالنعم ، او تلك التي ، في ازيادة  
 مرجيل ، قادت « اينه » بين منطقات مملكة « هادس » حتى اوصلته الى  
 مراتع السعادة . والانسان الحديث كالانسان القديم يشعر ، في تفتيشه عن  
 السعادة ، بان ليس غير الطهارة تستطيع ان تدخله الجنة ، تلك الطهارة التي  
 تجتسها الكنيسة في شخص ام الله وام البشر .

و « غلواء » هذه هي اجمل ما في نفس الشاعر ، لانها مثال الجمال الطاهر  
 الذي تطلبه نفسه حتى « في هيكل الشهوات » ومستمتع الفجور . فهو يذكرها  
 ويستنجد بها على زحمة اشباح الرجس :

وحتى روحك يا غلواء ولو غدرت بي الليالي واصمت قلبي النوب'  
 ان كنت في كفرة او كنت في دعر ورا طيفك مر الطهر والادب'<sup>١</sup>  
 ولاجلها ما قنع بالخطيئة واستسلم اليها بكلية ، وذلك ما جعله يأمل  
 بالنجاة ، ذلك ما نجاه حقيقة :

اما انا ولو استلمت اسر الى غمر الليالي ، فقلبي ليس ينسب'  
 قد اشرب الحمر لكن لا أدنها واقرب الائم لكن لست ادنكب'<sup>١</sup>  
 وغلواء . كانت لقلبه القريب في اللجة كخشبة الخلاص تصاق بها فأوصلته  
 بعد جهل مرير الى المرفأ .

لقد ابى ابو شبكه وهو بعد في الوحلة ان ينشر كتاب « غلواء » لانه  
 كان مخلصاً لذاته . فكيف ينشر كتاب التقاوة والطهر وقلبه ملي . بسوم  
 الافاعي الحمر ؟ أتراد بكذب على ذاته وعلى الآخرين ؟ لم يكذب ابو شبكه .  
 امأ بعد ان وصل الى الطمأنينة واحس بان ليس بعد ما يهدده بالفرق فقد  
 كانت « غلواء » آخر مؤلفاته الشعرية . وكأني به بعد تعب الملك ووعورة  
 الطريق نظر من اعلى قمة مستيداً المراحل التي قطعها ذاكرًا يد السحاب  
 الملائكية التي رافقته فنشأته . فليس عليه الا ان يرسم ملاحظتها النقية ويتوارى  
 وراء حدود الافاق .

## احكام مشرحة

رحم الله ابا نصيف وبرد قلبه ومثواه . لقد كان من فطرته لا يجب ان يجادل احد بشعره وينثره فيضع بينهما فارقاً وتفصيلاً . وما ذاك الا لانه كان يشعر وينثر عن اخلاص ، فشعره ونثره يتقطران من معين واحد ، من قلبه . ولكنه قد مات ، فقالوا فيه النبي . الكثير وحكوا عليه اعتباراً فشرها وجهه الشعري .

لقد قيل انه متأثر ببودلير . ولماذا يريدون ان يكون كل شعر تظهر فيه عضة الواقع الجارحة ابناً لبودلير ؟ واذا كانت « زهور الشر » « افاعي الفردوس » كتابهما ترجمان الصور الجائشة المضطربة التقاطيع ، فان بينهما فرقاً وسبباً من حيث الاستيحاء . « زهور الشر » قصة اليأس والقلق المرير ، وهذا ما يجعلها خطيرة تهدد اجمل ما في نفس الانسان ، تهدد تذوقه الحياة ، تهدد امله بالانقياس . اما « افاعي الفردوس » ، وان لم تقل خطراً عن اختها ، فانها كسمنا من مرة الى اخرى بعض صلوات تدل على ان صاحبها لم يستلم تماماً الى مرادة القنوط . « زهور الشر » هي استقرار في اليأس ، و « افاعي الفردوس » هي عراك مع اليأس . الاولى حرقه مزمنة لا شفاير منها ، والثانية وجع عمماً قريب يزول . اين القائل :

... « L'espoir

Vaincu, pleure ; et l'Angoisse atroce, despotique  
Sur mon crâne incliné plante son drapeau noir » .(1)

من ذلك الذي استطاع ان يسمع صوت الله في بركة العذاب :

ادعوك والظلمة المراء تحرقني . . . . .

فلم تمل قلبك الرحمن عن المي . . . . . وقلت : « تطلبني بين المساكين »

وبودلير الباحث عن الجمال ككل شاعر ما وجد لدى المرأة غير جمال خائن كاذب فقشاشم بها واذا به يستنجد بخيلته على خلق جمال فني حتى من

Spleen (1)

(2) افاعي الفردوس

مشاهد القبح ويرسم صورة « الخيفة »<sup>(١)</sup> المتبرئة تعربد الليدان فوقه . وفي هذا الجمال اللبيح كان يحاول ان يستقر رغم اشتدازه منه . اما المرأة - ديلة في ابي شبكة فقد كانت افعى تستأجر جمالها للخداع :

لنفيه عنك المساجور وادفنيه للاتهام الكبير

ان في الحسن يا ديلة افعى كم سمنا فحيحها في سربر (٢)

فاذا العصر كله سدوم اخرى فاجرة ترقع هذا الخداع بجمال شهى

ولكنه فاسد :

بود ستره الفناد بجدعه نكرأة بالخر الشهي رقيب (٣)

فين بوداير وابي شبكه اذا فرق في الاستيحاء . رغم التقارب من حيث

الاصواف الصاخبة المتصادمة التقاطيع ، الناشئة الرسوم .

وما ابعد ايضاً ابا شبكه عن الرومنطيقية التي هي مرض محبوب في القلب

ومغلاة في الواقع . فابن « الزوق » لم يمرض قلبه عن رضى وقبول ، بل

كان يود الشفاء من الميكروب . . . اما هتف مرة :

أرجع لنا ما كان يا دهر في لبنان

كانت لنا احلامنا والمق

وكان صغر الزمان

كان الضير الحفي من كترنا الزمن

وراحة الوجدان

أما طلب من الدهر ان يرجع

الى الفلوب اليأس الى البيون الجمال

وعزة للنفس وراحة البال . . . (٣)

ولم يقال في واقعه بل سرده علينا باخلاص مع ما فيه من ثورات لحم ،

واتشنج عصب ، وتزوات دماء ، وغرق في الاثم ، ومع ما فيه ايضاً من

(١) Une charogne

(٢) افاعي الفردوس

(٣) الايمان

اطشنان الى النقاوة وتكفير عن الخطيئة ، ومعاندة للفؤاد الجامع . وان  
يكن فيه شيء من الرومنطيين ، ففي ذلك الاحساس الملتبب الذي جعله كل  
ساعة عرضة لكل عاطفة وعاصفة .

لم يتفنن ابرشبهه بالقبر وبالراحة المشتهاة في جوانبه كما تفنى الرومنطيين  
ولم يحاول ان يطعن الى الذكري من حيث هي ذكرى يحتلها فيتخذها  
ينبوعاً لشعره وشحناً لتريخته ، بل كان لا يعرض لها إلا إعداداً للقاء او المآ  
من الفشل فيه . واذا كان ارتاح الى كل ما هو ديني ، موضوع الرومنطيين  
المزيف ، فلأن نفسه كانت في اعنى قرارها دينية لا تبدأ ولا تستقر الا في  
لفظة الله وفي كل ما يذكرها به على الارض من شموع مضاءة ، وقباب معابد ،  
ورنين اجراس ، وتمائم شفاه في الصلاة .

كفاه انه اخلص لواقعه لكي لا يكون رومنطيقياً بنا في هذه الكلمة  
من ابتدال .

فليس فيه من الرومنطية الا بقدر ما في الرومنطية من تعبير عن  
خبيجات الانسان . وانه انسان قبل ذلك ، خاضع لسنة التراب التي اقضت  
مضجع رسول الامم « فضاف ان يرذل وهو الذي بشر الاخرين » ، انسان  
مجهول من لحم ودم واعصاب ، فطوراً يطغى الروح على الجلم فيعذب  
الكلام ويظهر النفس ، وتارة يفرض الجسد سلطانه على الروح فيتعرف الى  
العتقة كالملاك الهاوي ، ولكنه لا يبرح « يتذكر دوماً سماه » كما قال  
لامرتين .

وظن البعض « انه مات قبل ان يقول كلمته الكبرى » . « وانه لزعم  
أجوف كأن ايا شبكه ما كتب » الى الابد » ، وكأنه ما اراد ، بعد تلك  
الخلالات ، ان يستقر دون تبديل في عالمه الذي سماه « معنى الجمال » ، وكأنه  
ما عبر لنا عن وفاته الذي شاء اهدياً :

يا حبيبي سبلاً الحب سجنى فليشدوا الحصون والاسوارا

رسابيك فيه جساً وروحاً وحناناً وشفقةً ووقاراً  
 أبوـعـالجون انـعـرمـ الـنـفـسـ رزاهـ وـتـعـجـبـ الـتـذـكـرا (١)  
 لقد كان على ابي شبكه بعد ان كتب « الى الابد » واتبعها « غلواء »  
 إقراراً بمجيب الملك الطاهرة التي نشلته من الهاوية ، كان عليه ان يتواري ،  
 والا لسعناه يردد علينا كلمات الحب ذاتها .  
 كلته الكبرى تلفظ بها بعد ان حاولت شفته طويلاً ان تتما مقاطها ،  
 فاذا المقاطع اولاً « فيحيح » لم يرض عنه ، واذا هي بعد ذلك « نداء » يبحث  
 عن بجزلة :

جمالك هذا ام جمالي ؟ فاني ارى فيك انسان جميل الهوى مثلي  
 وهذا الذي احببته ، انت ام انا ؟ وهذا الذي اهواه شكلك ام شكلي ؟ (٢)  
 وسيعترف فيما بعد انه كان يبحث عن الوجه المنتظر :  
 كم سمعت الفضاة يخفق حوي اترى كان يلتقي طيفانا ؟  
 كت بي قبل ان ادرك ببني فدمي كان يرتوي احبائاً (٣)

الى ان اهتدى اخيراً الى احدى الواحات فاستقر فيها ولن يفارقها الى  
 غيرها ، فهو من تلك النفوس السخية التي ان اعطت لا تملك بعد العطاء شيئاً  
 غير القدرة على تجديد العطاء . وهكذا لم يبق عليه الا ان يسمع الذين  
 أرجفوا بحقه وحقها :

نحن يا ليل اسد الناس فلننفر لهم كل ما يقولون عنا (٤)  
 وأن يخاطب قلبه ، تلك الشملة التي سوف يجيبها الضباب ، فيقر بان  
 « غلواء » هي التي أوجت اليه آخر كتبه :  
 لاجل غلواء واجل المذاب ، كتبت لي في الحب هذا الكتاب ،  
 يا شمة محجوبة بالضباب ،  
 يا قلب . . . . . (٥)

وهذه كانت اكبر كلمة قالها ، لانها مختصر حياته كلها .  
 لم يكن ابو شبكه لمدرسة معينة من مدارس الشعر ، فقلبه كان مدرسة  
 شعره ، « جرحه وسقى منه قلمه » . وكل ما ظهر في آثاره ، من عنف

(١) الى الابد (٢) نداء القلب (٣) الى الابد (٤) غلواء

احياناً ومن نعومة ورقته احياناً اخرى ، تلقته في تلك المدرسة . وكثيراً ما كانت الامثولات قاسية صعبة .

فاذا كان فيه من لامرتين وبودلير - وهذان الشاعران على تقيض - فلأنه اختبر في نفسه التلقة متناقضات عديدة وما كتب الا عن اختبار شخصي صادق . ولذلك فاني اعتقد انه اقرب الى موتسه ( Musset ) منه الى غيره . ومع ان الميكروب كان ذاته ، فقد كانت صحته اجزلاً احسن من صحة زميله . ولكن هذا ما منع ان كانت قسته من الحياة ثلاث سنوات اقل من قسة صاحب « الديالي » . رحمهما الله .

#### الشاعر المسيحي

لقد كتب الياس ابو شبكه في مذكراته ( ١٠ شباط ١٩٣١ ) هذه العبارة : « صرفت ساعتين من مساء اليوم في التأملات ... وبكيت<sup>(١)</sup> » . لماذا بكى الشاعر؟ لا شك في انه بكى حياته تهرق كل يوم في غير السبيل الذي اراد ان يخطه قلبه الكبير ! لقد بكى من حرقة ولهفة لان نفسه المتطلبة غداء غير غداء . الحب المجوع كانت تلج وتسرف في تعذيبه ! بكى لأن الدمعة نعمة ، ولأن الدمعة راحة ، ولأن الدمعة توبة ، ولكنه لم يكن بعد قد تاب ، فامامه طريق وعر وسنوات عديدة سوف يصرفها . بتغير التقوى والبرارة . وكانت دمعه في مساء الماشر من شباط سنة ١٩٣١ عجزاً ا عجزاً عن الثقلت من الكبول التي تقيدته ، عجزاً عن إشباع روحه من غير ما تلهى به حتى الان من حطام واصداف فارغة . بكى لانه غزم على قطع العلاقة مع ربه فقد كلفه ذلك ساعتين في التأملات ودمعة .

وبعد ثلاث سنوات ، في ايلول نيسان ١٩٣٤ ، كتب بين مذكراته هذه العبارة الثانية : « حضرت اليوم ذبيحة القديس بعد ان هجرت الكنيسة ثلاث سنوات . لا اعلم اي دافع يردني عن القيام بالواجبات المفروضة على المسيحيين<sup>(٢)</sup> ... »

(١) الياس ابو شبكه : دراسات وذكريات . ص : ١١٨

(٢) دراسات وذكريات ص : ٢٠٤

اما نحن فنعلم ما كان ذلك الدافع . لقد كان اخلاصه ، ذلك الاخلاص الذي جعله يسير كل حياته عزيز النفس على حرمان ، ملوث القلب على طهارة ، وفيما حتى الجرد بالروح ، حتى الدماء . ويتابع في مذكراته قائلاً : « ففي نفسي عوامل متناقضة ، منها يحاول إبعادي عن المراسم الدينية ، ومنها يحاول تقريبي منها » .

اما تلك العوامل التي كانت تبعده عن مراسيم دينه فاولها هو ايضاً ذلك الاخلاص وعدم الرياء . كان يعلم ان الحياة التي يعيشها لا تتفق مع متطلبات المسيحية التي تفرض الاستقامة في حياة القلب . واو شبكه شعر بان قلبه زاغ وكفر ، ولهذا لم يشأ المداهنة وإظهار التدين والورع .

واخلاصه ايضاً لدعوة قلبه السامية كان من العوامل التي كانت تقربه من دينه . لقد قيل ان كل شاعر حقيقي يؤمن بالله ولا شك في ان ابا شبكه كان شاعراً حقيقياً . وكان عليه ان يلبي صوت ايمانه بالله . وقد عرفناه سخياً حتى في الخطيئة ، ان تورط فيها فلن يضل الى اعماقها ، فيستطيع ان يقول مع اغوستينوس : « يصعب علي ان اكون في الوسط ، بين بين » . فاذا به من جهة يحاول ان يكون مخلصاً لندا . ضميره ، صوت الله فيه ، ولكنه ، من جهة اخرى ، كان يطيع ندا . الفؤاد المنحرف . وهكذا بدأت المأساة في نفسه .

كان ابو شبكه شاعراً مسيحياً لن نحكم عليه بقولنا ، كما قيل عن « فيدر » ( Phèdre ) بطلة راسين ، انه مسيحي نقصته النعمة لاننا نعلم ان النعمة لا تنقص احداً ، بل هي بالاحرى تتبع بالراح كل انسان . نقول انه مسيحي لانه لم يرض ابداً عن قلبه الجاهل الذي قوي على روحه . ومن يقرأ سطره يشعر بذلك القلق الداخلي المستمر الذي كان يسبب به الى الاقتلاع عن كل ما كان يحمله احط منزلة من مسيحيته . وكل شعره عابث بتلك الاجواء الروحية المسيحية ، فهي تارة غائمة الالوان من جراء الإثم وطوراً مستقرة صافية . وكان كل تذكارات ديني يعود الى مخيلته كان يغرس في نفسه وروداً من الامل الاخضر فيشيع الهدوء فيها وتتمر السكينة والطأنينة تلك النفس التعبة الموزعة بين الدعوات العديدة المتبعة . واذا كان اروع شعره في تلك

الارصاف الساخبة المضطربة لقوى الشر الكامنة في جسمه الناري ، فان شره الأكثر تأثيراً ووقماً في القلوب والاقرب اليها ، هو في تلك الايات الناعمة الحفيفة الصلوات ، الشجية الاصوات ، حيث تصطف الكلمات كأنها عذارى طاهرات حول القافية الملكة التي تناديهن . من يستطيع ان يحور من ذاكرته تلك الايات الهادئة التي تمشي العذوبة والصحور بين مقاطعها ، كأنها حقيقة صحو « المغيب » وعذوبة انسداله فوق ضياع لبنان :

اسمي الاجراس في قبة دير الراهبات  
يمتل الوادي صداها للنفوس الزامـدات  
فيه اصوات حنان وبة سايا زفوات  
صدخا راهبات الدير قـدام الصليب  
اسجدي لله يا قضي فقد راني المنيب (١)

ولنلاحظ هنا استعمال حروف العلة وخصوصاً الالف التي تعطي الصوت مدى متصلاً وتفخر الايات بموسيقى عذبة وحنان واشواق مبرحة الى ديار مجهولة الحدود . واتمته غارقاً في بجران تأمل عميق ، على صخرة في « الذوق » يسمع جرس كنيسة عينطورا يرن في الوادي حاملاً الراحة على رناته المتقطعة بين الكروم والغابات ، ثم تنجل متلاشية مع آخر انفاس العطور ، مع آخر نفس في شباة الراعي ، وقوت كأنها ذلك الشماع الاخضر ، بلون الأمل ، تلفظه الشمس عند الغروب لكيلا يحترق الامل في القلوب . ويرى بعين الخيال راهبات حفر التقشف تجمّدات في وجوههن جاثيات في معبد مهجور الآمن نفتاتهن يحتلن المصلوب اوجاع الارض ويساطفته نجاوى الحب الملتاح المذنب . واعتقد ان الاجراس كان لها وقع خاص في نفس الي شبكه فكثيراً ما تتردد اصداؤها في شره . ولا عجب أليست الاجراس هي تلك الدعوات الى المجهول حيث يقيه لحنا وحيث تردّ نفس الشاعر العذبة ان تستقر منفلة من هموم الوجود واتعابه ؟ أليست هي التي تذكّر الانسان باجمل ساعات النهار : الشروق والغروب ؛ فكأنما دقائق المضجعة امل باخياة ورنينها في المشية استلام لضجعة الموت ، مفزع الشاعر الثبان . أليست نفس الشاعر الحساس

رنة خاققة تلتقي بذاتها متى سمعت رنة أخرى ماديةً اجل ولكنها اقل الاشياء ماديةً ؟ كذلك نفس ابي شبكه كانت تسقط وتصل في تلك الرجعات المرنة المديدة ، بمحقة سامية ، بالله الهامس في قرارة الضير :

- وردت صدى الاجراس في كبد الضحي ييب بارواح العباد فترج... (١)  
اسمي الاجراس من قبة دير الراهبات... (٢)  
اسم في الوادي رنين الجرس يذب روح الله في التمين... (١)  
وذكرت أخيلة الماء وردة الاجراس في الهواء... (١)  
وكانت قبة الجرس المقيمة على عمدتي صكبتها الندبة... (١)  
اسم اجراسك من بييد فهي تشاديني الى السجود (١)

وهكذا كان صاحب « الى الابد » يضي الى الصدى الذي ييب به ولا يسرع فيسي قلن الروح مضطربها . وهناك في داخله وحدة منفردة الحلقا ييب بان يعقدها فيخفق وينطوي من جديد على الم جديد . وما يستمر بشي . من الراحة الا حين ينسى ذاته ، ساعة تغمره اسرار الدين ، ذلك المنبسط الرحب حيث ترتاح النفوس الكبيرة .

ما ترك ابو شبكه دينه حتى في ساعة الاعمال والعصيان . ولو اراد ذلك لما استطاع . فانه قد عاش في بيئة مسيحية . الاديار حوله مزروعة على كل روية والكتانس ترفع قباها في كل ساحة قرية ، والثياب السوداء يلتقي بها على كل درب ، وتذير الابهاء اللازرين ييمن على افكاره ونفاقته ، وما يبرج طيف رئيسه القديم الاب سرلوت يواكبه فيبدو مثالا يجمع الشعر والدين معا ، شعراً قوياً وتدنياً عميقاً .

الى ما هنالك من حفلات دينية حضرها وما زال غير المباخر يعبق في انفه وانغام الطقوس تتردد في طوايا فؤاده :

الناس في المتكف المقدس بيلون في بنور الأنفس  
وللنفوس صوغا المسوع ،  
وأذرع الجائر المرتجفة كأنها مارج منكنه  
جفت على قتها الشوع

ومحبات كمن القدير بديب روح الله في انفس  
فال بصوت حافت. « ابد » أنزل على شوبك الغفراء. (١)

ذلك الغفران الذي كانت تطلبه نفس الشاعر لتشفى من اوجاعها. فكم  
مررة أسمنا ذلك النداء المحموم طالباً الغفر عن آثامه ، وما تلك « الصلاة الحمراء »  
التي كتبها وتلك « الدينونة » سوى الدليل عمّا كان يُخزّ في نفسه من الندم  
وما يتخوف منه ، ساعة تظهر السيئات امام العيون . واذا به يصرخ من  
اعماق نفسه المجروحة :

رباه عفوك ! ابي كافر جانٍ . . . (٢)

قيل عن تأثير التوراة على شاعرية ابي شبكه . ان ذلك لصحيح .  
فاذا كان الشاعر ذكر « سدوم » « وشمشون » « وحواء » « وعذاب الضير »  
فلانه كان حقيقة متأثراً بتلك الفصول التي قرأها وخصوصاً لانه كان يجد لما  
صدى في نفسه التي فجرت مرة كسدوم ، وكشمشون زانغت عن دعوة الله  
القدسية وكحواء تطففت الثمرة التي نهى عنها الخالق . وبما ان الهدى القديم  
من الكتاب المقدس هو ، نوعاً ما ، تاريخ الانسان المطرود من جنة النعم ،  
كان المعبر عن تاريخ ابي شبكه ، ذلك الشاعر المطرود من جنة الافراح  
ونعم السلام ، ولكن الى عهد . لانه بعد ان رجعت الطمأنينة الى نفسه ،  
أطبق السفر القديم وفتح صفحات الجديد حيث وجد الغفران يتقطر على شفتي  
الشافي الاكبر ، مبرر الحاططة ومهدم قبور الرياء الكلسية التي يمشي الناس  
فوقها ولا يعلمون . هو عهد « الى الابد » « وغلواء » حيث تنزل عينان  
حييتان من سما . الحب متأ وسلوى فوق صحراء الشاعر . لقد ادرك ابو شبكه  
في هذه الاونة ان الألم هو الذي يقود الى الله وان « الذي يجهل الألم لن يتعرف  
الى الحب » كما قال نوثاليس ( Novalis ) ذلك الكاتب الألماني المشاهير . لقد  
ادرك ان ما من احد يستطيع ان ينعم « بشماع الله » ما لم يصد الى قمة  
الالام :

(١) غلواء .

(٢) اقاعي الفردوس .

من ليس يروق ذروة البلبلجة ولم يسر في العوى أغلة  
 وُبرفع اللفم والمثل له ،  
 من يصر على المخمل ، ولا يذوق البؤس في الاول ،  
 لن يعرف ، السر ، شاع الاله ... ١)

ان آخر شعره ظهر لصاحب « الى الابد » كان هذا :

وشفيت غلواء من اوامها لكنها لم تنان من آلامها ١)

اما اوامها هو فكانت تلك المراحل المظلمة التي قطعها ، وتلك الضلالات  
 التي اتخذ بها حين اعترم الحب ، لقد شفي اخيراً منها . وقد بقيت الالام  
 فلم يشف منها ، وستوده وهو في ريعان الشباب واخضرار العمر الى ظلمة  
 المرر الباردة وهناك استراح قلبه التعبان الراحة الكبرى في غفوة ما استفاق  
 بعدها الا على غير الصحارى الموحشة ...

### عبارة

ان ابا شكه باختباره الوجيع حالة تنزلق اليها الارجل المدينة بينونا في  
 طريق هفواتنا وضمفتنا . واذا كان من امثلة تتخذ من شعره فهي توجيه  
 الى درب الخير والادراك ان ما من شعب الا بالله الذي يستطيع وحده ان على  
 فراغ قلوبنا وليالينا . لا شك في انه ليس بمثل يُتقدى به في الحياة لأن الألم  
 ظفر بجياته وسحبا ، وما كان ذلك الألم سوى نتيجة السقطة التي جرّعته  
 المرارة . ولكن عناصر الخير كثيرة في شعره للذين يفهون وللذين لا  
 يتوقفون عند الاوصاف التي قد يضطرب لها القلب الفتي ، بل يتعدونها الى  
 ذلك المراك النفساني المتواصل بين ما كان يشد به الى التراب وبين ما كان  
 يدعوه الى العلاء . ولا شك في ان امام كل انسان مثالا للانسان الكامل  
 يسعى الى تحقيقه . وما دام لا يصل اليه فهو قَلْبٌ تَبُّبٌ ينطوي على ذات  
 مقروحة مهشة . كل انسان يسعى الى تحقيق ذات عظمى كامنة فيه غير  
 ذاته الواقعية الكاذبة ، اكان فيلسوفاً او شاعراً او سياسياً او عاملاً . تلك  
 هي قصة القلق الوحيدة التي تروينا لنا المصور منذ علقها الله بجبال واهية فوق

هرة الابدية . القلق يسكن في جوف العامل الذي يتطلع الحدى على الطريقتين في  
 المنجرة كما يمر دماغ الفيلسوف السابح وراء تأملاته . القلق يزحف الينا ويدب  
 في قلوبنا نفي كل خليقة عاقلة له مجال وغمرة عراقك . ولذلك ليس من راحة لانه  
 ما من خلاص . من براثن القلق الضارية طالما رأسنا يتأرجح بعد في الهواء . ويحاول  
 ان يقطع الاجواء البعيدة بينا هو عالق برجاين مقيّدين باغلال التراب الثقيل .  
 اما الشاعر ، صدى المسكونة وكاهن الانسانية ايطامل اتراحها وافراحها ،  
 بأسها وآملها ، جحيمها ونعيمها ، فيشعر اكثر من غيره بما يحدث في نفس كل  
 انسان . ولذلك فالحزن والحركة تسنه لانه يُختبر بحس ادهف من حواس  
 اخوانه الماديين ، يختبر في داخله إخفاق البشرية لدى محاولتها الوصول الى  
 بشريتها المثلى . وان تلك المحاولة مخففة دائماً . ولم يكن من انسان زعم  
 انه حقاً غير نيتشه ( Nietzsche ) . ولكنه جنّ لانه اراد ان يحتمل طبيعته  
 اكثر مما تستطيع ان تحمل ، اراد ان يقفز فوق ظله فبوى في فراغ سحيق .  
 وما كان ابو شبكه الا احد المحاولين ردم الهوة التي تفصل بين ما كان  
 حقيقة وبين ما كان يريد ان يكون . فاذا به بعد تردد وتيهان يشرف على  
 الزوية المطلّة على ارض الميعاد ، وكوسى لم تطأها قدماء بل نظر اليها من بعيد .  
 ابو شبكه ككل انسان على الارض لاحت له السعادة فتشتم قليلاً بجياها  
 العابر ولكنه لم يمتلكها . وما اجل ان تأمل انه بعد غفوته الاخيرة استقر  
 في سمائه الى الابد . ولقد اخبرنا الاستاذ ميخائيل نعيمة انه في ليلة قضاه  
 عند ابي شبكه « شاهد مضيئه يستوي في سريره ويصلي بجملة المؤمن » .  
 هي تلك البرهات القصيرة في عمر الشاعر التي تشجّعنا على هذا الامل . ولقد  
 اطبق عينيه هو على هذا الرجاء المسول الغير المخذول بعد ان هتف بكلمات  
 تقطّما حشرجة الموت المقبل ، تلك الكلمات التي تتصاعد من صدر كل  
 انسان غريب عن وطنه الاول :

« من الامام صرخت اليك يا رب ! »